الابحاث الكاملة
(٦)

ملاحظات في سايكولوجيا الحرب

جاسم كريم حبيب

الابحاث الكاملة

(٦)

ملاحظات في سايكولوجيا الحرب

جاسم كريم حبيب

تمهيد

● يساهم « علم نفس الحرب » بقسط وافر في نجاح أية حرب جسدية او نفسية عادلة تشنها دولة أو امة ما ضد دولة أو أمة آخرى لاسباب معينة ، لكونه يدرس احد جانبين رئيسيين يساهمان في الحرب هو العامل النفسي ، حيث يعتبر العامل المادي الجانب الرئيسي الثاني • وبديهي ان المعرفة العلمية بطبيعة العامل النفسي وضمان تنفيذه على الوجه الافضل يعود اليه نصف النجاح المتحقق في أية حرب عادلة — ان لم نقل نصيبه من هذا النجاح اكبر — وهو ما دللت عليه مختلف الحروب التي نشبت بين دول وأمم العالم في شتى البقاع سواء كان ذلك في الماضي أو في الحاضر •

ان فهم الحرب كظاهرة اجتماعية لها خصائصها المعينة ومتغيراتها الاجتماعية (الاقتصادية والسياسية والثقافية ••) ، وبغية الفوز فيها يستلزم دراسة مجموعتين من العلوم •

الاولى : هي المجموعة التي تتناول بالدراسة كافة المعدات المادية في الحرب كالتسلح الآلي والامكانيات الاقتصادية اللازمة وطبيعة الارض •••

والثانية : هي التي تتعلق بدراسة الطبيعة البشرية وخصوصا المحاربة منها ، حيث يبرز من بين هذه المجموعة من العلوم « علم نفس الحرب » كعلم متخصص في الاهتمام بكافة العوامل النفسية اللازمة في القتال • وبذلك ومن خلال هذه الدراسة

المستفيضة يمكن فهم الحرب كظاهرة اجتماعية تتميز بعلاقاتها وقوانينها الخاصة التى تتحكم بها ومن ثم يمكن التنبـؤ الدقيق بنتائجها •

● لقد ساهم التماسك النفسي المتين لفئات المحاربين والمدنيين على حد سواء مساهمة كبيرة وفعالة في نجاح جميع الحروب العادلة التي خاضتها شعوب دول أو أمم العالم المختلفة سواء في الماضي أو الحاضر ، ولعل الدليل القريب الينا الذى يمكن لمسه على أهمية و دور التماسك النفسي في نجاح أية حرب ومن ثم تعزيز هذا النجاح باستمراره ، نجد في الحرب العراقية الايرانية الدائرة الان • فلقد لعب التماسك النفسي دورا كبيرا وبارزا في النصر الذى أحرزه العراق ، اذ بماذا يمكن تفسير تقهقر دولة كبيرة أمام دولة صغيرة تقل عنها في مستلزمات الحرب المادية كالاعداد البشرية والتسلح الآلي الحديث ••• أو بعبارة اخرى الى أي شيء نعزي انتصار دولةصغيرة في حربها مع دولةكبيرةتفوقها عدة واعداد وتجبرها على الحرب بضراوةفيعمق أراضيها ؟ أما يكون ذلك بفعل التماسك النفسي المتين الذي يفوق في جبروته تلك الكميات الهائلة من مستلزمات الحرب المادية •

● ولعل أهم ما نود أن نشير اليه في مقدمة هذا البحث هو ان من أبرز سمات العلم منذ نشأته وحتى مراحل تطوره المختلفة •• هي موضوعيته ومحايدته ، اذ مع العلم لا يوجد تحيز لجهة ما أو تعصب لمعتقد معين •• أما ناحية تدخل الانسان فيه فيكمن فقط

في توجيهه لخدمة سعادته وحفظ أمنه ...

وقد يجد الدارس اننا حاولنا بدرجة ما التدليل على اخلاقية « علم نفس الحرب » من ناحية ارتباطه بالعدالة الاجتماعية ، الا ان ذلك قد حصل من خلال الاستنتاجات التى طمحنا أن لا تخرج عن أطار المنهج العلمي السليم ، لاننا معنيين بتقديم وجهـة نظر علمية وليست وجهة نظر أخلاقية أو سياسية ... أي ان ما ذكرناه من آراء انما قادت اليها الاستنتاجات المجردة في ضوء معرفتنـا الحالية التي تتمنى أن تكون قد حققت درجة جيدة من العلمية ، آمل أن يستفيد منهـا الدارس .

جاسم كريم حبيب

بغـداد ـ أيلول عام ١٩٨١

اولا :

معلومات أولية

الحرب

هي حالة قتال جسدي أو نفسي بين البشر بسبب تحقيق أهداف محددة . والحرب تكون عادلة بقدر عدالة الاهداف التي تشن الحرب من أجلها ، وهي غير عادلة بمقدار التي تكون فيه أهدافها باطلة أو غير شرعية .

ومن اشكال الحروب العادلة هي الحروب التي تشنها الدول والامم ضد الغزو الاجنبي الطامع في احتلال أراضيها وامتلاك مصادر ثرواتها ، او الحروب التي تشنها القوى التقدمية التي تمثل الطبقات المضطهدة والمستغلة ضد القوى الرجعية الحاكمة في البلد أو الامة الواحدة وهي التي تعرف بـ « الحروب الاهلية » .. أما من اشكال الحروب غير العادلة فهي تلك الحروب التي تشنها الدول الاستعمارية الكبرى على الدول المتخلفة بغية استغلالها ونهب ثرواتها أو الحروب التي تقوم بها القوى الرجعية المستبدة ضد الطبقات الكادحة وقواها التقدمية للاستمرار في مزيد من الاستغلال والاضطهاد .. ان الحرب التي رافقت الانسان منذ بدء ميلاد حضارته وحتى الوقت الحاضر ، ستظل كظاهرة اجتماعية حتمية مستمرة ، قائمة ومعلنة عن وجودها في عالمنا بشكل أو بآخر وتحت هذه الدرجة أو تلك ، الى أن تحسم نهائيا والى الابد كافة الشروط الاجتماعية التي تقف ورائها ، وبذلك فان أي علاج للحرب سواء بالنسبة الى تفادي

وقوعها والوقاية منها أو انهاء حالـة الحرب المستعرة هو علاج عقيم لا يجدي نفعاً اذا لم يتناول الاسباب الاجتماعية المختلفـة التي تكمن وراء الحرب كظـاهرة غير مستقلة عن متغيراتهـا أو عوامل التحكم فيهـا •

ان الحرب كظاهرة لها خصائصها المعينة وشروطها الاجتماعية (السياسـية والاقتصادية والثقافية ••) وبذلك فان الحرب هي مجال قائم بحد ذاته ضمن هذه الشـروط او المتغيرات •• التى يمكن ـ عن طريق دراستها بشموليه وعمق ـ اكتشاف العلاقات والقوانين التى تتحكـم بهذه الظاهرة • والحرب كاسـتجابات تتكون لدى الانسان يقوم بتنفيذها عمليا (سـلوك عدائي) او الحرب كفعل انساني انما هي نتيجة للمؤثرات انبيئية الواقعة في خارج الانسان كرد عليها ، فهي اسـتجابات ذات طبيعة مكتسبة وليست استجابات او ميول فطرية موروثة في بعض كروموسومات الانسـان او مراكزه الدماغية كما يذهـب الى ذلك بعض علماء التحليل النفسي وفي مقدمتهم (سيجموند فرويد)الذى يعتقد ان العنف غريزة طبيعية في الانسان ، حيث اذا لم توجه الى الخارج بأتجاه تدمير ذوات الاخرين فانها ترتد الى الداخل لتحطيم الذات ، وبذلك يجد ان الحرب امر ضروري وطبيعي بين البشر اذ تجـد تبريرها البايولوجي لديه •

يكتب (فرويد) في هذا المجال : « أن الحرب ليسـت الا تحويلا لغريزة التدمير وذلك بتوجيهها نحو العالم الخارجي » •

ان الافكـار التى تزعم بان العنف تحـدده مراكز معينة في الدماغ مسؤولة عن حدوثه او تسـببه غرائز ثابتة موروثـة في الانسان هي افكار عقيمة ومشوهة ، لا لكونها تجر الدمار وتجلب الشر للبشرية حينما تقرر ان العنف جزء من طبيعة الانسـان وان الحرب ضرورة له لا بد منها ، وانما لكونها افكار ليس لها ادنى نصيب من الصحة العلمية ، لاغفالهـا التام فعل مؤثرات العوامل البيئية الاجتماعية المختلفة الذى يكون السلوك البشري في النهاية ما هو الا محصلة لها بمعية الانسان .

لقد اثبتت الابحاث والدراسات التى قام بها علماء امثال : « ساكون ولينج ورايخ .. » ان العنف البشري لا تظهره غرائز طبيعية موروثة في الانسـان ، او ان تكـون هنالك مراكز معينة مسؤولة عن حدوثه في الدماغ ، بل ان له اسباب اجتماعية بحته ، هذه الاسباب هـي التى ينبغي ان تتناول في التحليل والمعالجة ، بمعنى ان العلاج يجب ان يشمل ما يحيط بالانسان من الخارج ، لا ان يعمد اليه من الداخل . ويقدم امثال هؤلاء العلماء التجارب التى تثبت ان نزعة العدوان لدى الانسان هي صفة مكتسبة من الوسط الذى يحيا فيه ، ففي بعض التجارب الطريفة التى قام بها العالم النفسي « كيو » على مجموعـة من القطط تبين ان العداء الذى تضمره القطط للفئران هو صفة مكتسبة وليست صفة طبيعية عند القطط ، اذ اخذ مجموعة معينة من القطط الولبدة وعزل بعض منها عزلا تاما عن الام وعن جميع المؤثرات البيئية المختلفة ، كما

إخذ مجموعة اخرى من القطط الوليدة وجعلها تعيش مع الأم بشكل طبيعي ، وفي نهاية الامر وجد ان القطط التى ربيت مع امهاتها بالطريقة الاعتيادية تعتبر الفئران كطعام لها ، بينما وجد ان القطط التي ربيت بمعزل عن الظروف البيئية المألوفة لا تظهر اية نزعة عدائية نحو الفئران او محاولة افتراسها ◦ وبذلك فان امثال هؤلاء العلماء يعطون الدليل القاطع على ان الكثير مما نظنه (خطأ) كصفات طبيعية موروثة لدى الانسان ، ما هو في الاصل الا صفات مكتسبة من البيئة الاجتماعية المحيطة به ، حيث ان العنف هو احد الامثلة على ذلك ◦ ان هذه النتيجة لا تقودنا الى الحل الصائب للحرب (للوقاية من نشوبها او لانهاء نشوبها) بعد ادراك العوامل التى تسببها بغية التحكم فيها فحسب ، وانما تبعدنا عن الخطأ الذي يمكن ان نقع فيه ، حينما يكون علاجنا لها منصبا على الانسان بأعتباره السبب الوحيد للحرب ، من ناحية ان نزعة الحرب هي جزء من كيانه البايولوجي الموروث وان اظهار هذه النزعة امر ضروري له وحتمي لديه ، وبالتالي يمكننا الاستنتاج (خطأ) ان القضاء على الحرب انما يتم من خلال القضاء على الانسان ما دامت بذور الحرب كامنة فيه ◦

ان الحروب التى شهدها عالمنا (سواءا منها الحروب المعلنة او غير المعلنة) تدل بوضوح ، ان الحرب ظاهرة اجتماعية قائمة بحد ذاتها وغير مستقلة كأية ظاهرة اجتماعية اخرى عن شروطها الاجتماعية (السياسية والاقتصادية والثقافية ◦◦) التى تشكل

قوانين خاصة بها يمكن التحكم بها والتنبؤ لها ، وبذلك فأن اي علاج خارج هذه المتغيرات او الشروط هو علاج وهمي وعقيم ولا يجدي نفعا بأية حال من الاحوال .

● الحرب والسياسة

الحرب ليست السياسة ، كما ان الحرب بمفردها ليس استمرارا للسياسة بوسائل اخرى عنيفة كما يذكر «كلاوسفيتز» ، اذ ان السلم يمكن ان يكون هو ايضا استمرارا للسياسة ، فيما اذا توفرت شروط اجتماعية مغايرة للشروط الاجتماعية التى تسببت في نشوب الحرب . ان الاصح ان يقال ، ان كلا من الحرب والسلم هما جزءان من برنامج سياسة معينة سواء كانت هذه السياسة هي سياسة لدولة او لامة او لمجموعة سياسية ما .. حيث ان هذه السياسة المعينة لابد ان تضفي من سماتها طابعا مميزا للحرب التى تشنها او السلام الذى تعلنه ، ماداما انهما جزءان من برنامجها الشامل . معنى هذا انها تملك موقفا ثابتا ازاء الحرب ومثله ازاء السلام مبن على اسس علمية بقدر درجة علمية برنامجها المخطط الذى تسير بموجبه . على هذا الاساس فان السياسة العادلة لدولة او لامة ما .. يتبعه بالضرورة ان الحرب التى تشنها هي حربا عادلة ، كما ان السلام الذى تعلنه هو سلاما حكيما،والعكس صحيح . على اننا ينبغي ان نشير هنا الى ملاحظة ــ نراها ــ جديرة بالاهتمام ، وهي ان الحرب احيانا ــ وعند توفر الشروط الاجتماعية العادلة في نشوبها ــ تعني السلام او تعني تحقيقه . اذ

ان الدولة او الامة التى تعلن السلام مع توفر شروط الحرب العادلة انما هي تعلن الحرب الخطرة ضد افرادها بشكل مباشر معرضة اياهم الى امراض نفسية مميتة من جراء استغلالهم او استعمارهم .. وبذلك فان منطق العلم هنا يتآلف او يتحد مع منطق الحق ، في ان معارضة الحرب الباطلة لا يتم الا من خلال الحرب العادلة وان الحرب العادلة ما هي الا طريقا صائبا لانجاز السلام المنشود وتلافي جميع العناصر او العوامل المسببة للانكسار النفسي لدى الجماهير ، فانعدام الطمأنينة ـ كما يقول الدكتور مصطفى حجازي ـ : « لا يقل عن الخوف من المعارك المحتدمة والتعرض للاصابة خلالها ،لانه قلق من نوع منتشر ليس من اليسير تحديده، اما خطر الاصابة فهو يثير خوفا قابلا للموضعة المكانية ، وبالتالي للعلاج من خلال بعض تدابير الاحتماء » .

● الحرب والسلطة

ان المقصود بالسلطة هنا ، سلطة الدولة او الامة او المجموعة السياسية .. حيث على ضوء طبيعة العلاقة الحاصلة بين افراد هذه السلطة ، وعلى وجه الخصوص ، قائد السلطة وافراد تلك الدولة او الامة .. تتوقف درجة الظفر في الحرب التى تقودها السلطة . ان تداخل الفرد في المجتمع وتداخل المجتمع في الفرد عبر عملية ديناميكية متبادلة الاثر ومتوازنة قائمة على اسس صحيحة تستوعبها سلطة معينة يؤدي بالنتيجة الى التفاف الجماهير المتين حول السلطة وحول قائدها ، الامر الذى يعتبر هذا سببا في

مقدمة الاسباب العظيمة الاهمية في احراز الانتصارات الساحقة للدولة او للامة .. اثناء حربها العادلة ضد اعدائها كدولة او كأمة اخرى .. طامعة في نهب خيراتها او احتلال اراضيها ، على الرغم من تفوقهـــا (ان وجد) في المعدات الحربية والاعداد البشـرية المحاربة ..

ان مختلف الحروب والاحداث التى وقعت في العالم تشير ــ من دون ادنى شـــك ــ الى ان « من ابرز اسـباب النجاحات العسكرية للشعوب الناهضة في معاركها ضد اعداء يفوقونها عدة وعددا ، التفافها حول قائد يلعب دور الاب المحب لجميع اتباعه ومواطنيه الذين يستلهمون قوته وتضحيته ، ويقيمون معه صلات مباشرة واولية . التاريخ يزخر بالشواهد على هذه الوضعية . كما يزخر بشواهد على وضعية مضادة ، تكون فيها السلطة رســمية اساسا فتتراخى الروابط العاطفية وتنشأ الهوة بينها وبين الجماهير التى تتحول الى موقف متفرج ، يصعب استنهاض همتها واخراجها منه ، فتكون الهزيمة » . ان السلطة متمثلة على وجه الخصوص بقائدها ، تمثل للفرد في المجتمـــع ، الامومة والابوة التى ترعرع بين احضانها ، حينما لم يزل طفلا لا يستطيع ان يعيش الا بواسطة غيره من خلال الام والاب . او بعبارة اخرى ان السلطة وقائدها هي استمرار الامومة والابوة للفرد او هي تعويض عنهما ، على الرغم من اختلاف الصيغ او الاساليب في كلتا الحالتين ، الا ان الاهداف او الغايات متماثلة . والسلطة بالاضافة الى توفيرهـــا

لمختلف المستلزمات المعيشـية لحياة من تتولى قيادتهم ، لابد ان تكون قادرة او متهيأة للذود عن جميع ما يهدد الافراد ويتعرضون له من اخطار خارجية ، حيث انه بمقدار نجاح السـلطة في انجاز مهماتها الاساسية يكون مقدار التفاف الجماهير حولها ومساندتها الكبير لها ، وبالتالي مقدار انتصاراتها في اية حرب عادلة تشنها او اية اجراءات تزمع القيام بها . على هذا الاساس يمكن القول عموما ، ان معيار شعبية اية سلطة ما هي بمقدار انتصاراتها في اية حرب عادلة تخوضها ، بعد نيلها مؤازرة الجماهير العريضة التى تبادر في تقديم مختلف اشـكال عطاءاتهـا المتاحة بأتجاه النصر المنشود .

ثانيــا :

نقد مفهوم « فرويد » للحرب

● ان الحديث عن « فرويـد » بخصوص اي من الموضوعات التى اثارها وناقشها ، يعني بـه الحديث عن (نظرية التحليـل النفسي) لانه الواضع الاول لاساسياتها ومحتوياتها والمساهـم النشط في تصدي ما يعترضها من ثغرات يشـير اليها الخصوم ، امثال : جونز وسيميل وفيرنيزي وابراهام وغيرهم ••• اي بعبارة اخرى ان مناقشة وتحليل مفاهيم « فرويد » هي بمثابة مناقشـة وتحليل وجهات نظر (التحليل النفسي) وبالعكس فان اي كلام يقال بشأن (نظرية التحليل النفسـي) انما هو يعني الاشـارة بالدرجة الاولى الى « فرويد » من بين مجموعة علمـاء اخرين ساهموا معه في بناء هذه النظرية • وعلى الرغم من ان (نظريـة التحليل النفسي) نظرية لم ترتق الى مرتبة (العلم) فانها تعتبر من النظريات الحيوية التى تجد لها صدى واسع ونفوذ كبير حتى في الاوساط الاكثر ثقافة ، ولعل هذا يرجـع ـ باعتقادنا ـ الى براعة اسلوبها في العرض وما يمتاز به من تحليـل منطقي يصل بالدارس الى ما يشبه الاقتنـاع التام بالمبادىء التى تفترضهـا مسبقا • وقد لا يجد الدارس في « فرويد » مفكرا عبقريا الا انه لا يستطيع ان يعتقد انه كان مفكرا عاديا ، ولعل هنا يكمن سـر عظمة « فرويد » الذي ينبغي عليه اكتشاف هذا السر • فعلى الرغم من ان « فرويد » يفترض اكثر مما يجب في مضامين نظرية لابد من ان يكون لديها ثمة طموح في شق طريقها للبلوغ الى مرتبة (العلم) فان معظم فرضياته ـ ان لم نقل جميعها ـ هي ليست بعيدة عن ادراك الانسان فحسب وانما هـي بعيدة ايضا حتى عن احتمال

الوصول الى مثل هذا الادراك ، وان اتخذت من الاساليب البارعة بما يكفي من توطين الثقة والرضى في نفس الدارس • ولعل هذا الامر كاف ـ عند الوصول الى مرحلـة القبول ـ ان يجعله في حيرة او فيما يشبه الصراع بين حالتي الرفض والقبول ، رفض تلك الاسس الاولية المفترضة مسبقا وقبول الاسـاليب الشيقة التى تعتمد التحليل المنطقي سبيلا لاثباتها • ووصول الدارس الى هذه المرحلة من شأنه ان يرسب اعتقاد لديه فحواه ، ان سر عظمة « فرويد » يكمن هنا اكثر ممـا يكمن في اكتشاف مما يسـميه (حقائق) لا يرقي اليها الشك مطلقا • او بعبارة اخرى ان الشموخ الفكري لـ « فرويد » يظهر في الطريقـة التى يحاول فيهـا اثبات فرضياته اكثر مما يبدو ـ كما قد نتوهم ـ في اكتشاف حقـائق تخص بواطن النفس البشرية • وهو امر لا بد من تصوره عامل رئيسي في اخفاق معظم ابحاثه ودراساته المختلفة ، حيث ظهر هذا الاخفاق من خلال التطور الكبير الحاصل في الابحاث العلميـة المعاصرة المتعلقة بدراسة الانسان ، وربما هو سبب رئيسي ايضا يحول دون بلوغ (نظرية التحليل النفسي) الى مرتبة « العلم » في حالة افتراض كون بقاء معظم علماء التحليل النفسـي يسيروا على ذات الخطى التى ابتدعها « فرويد » والرواد الاوائل •

وقد يجد الدارس بعد هذا العرض الموجز اننا ابتعدنا عن الموضوع الذى نرغب بمناقشته في هذا المجال ، الا اننا نعتبر ان مثل هذه الاشارات الى (نظرية التحليل النفسي) وهذا التعريف

العابر لواضع اسسها ومقوماتها مدخل مهم جدا في قبول او رفض افكارها المتعلقة بخصوص (ظاهرة الحرب) •

● يرى « فرويد » ان الحرب انما تحدث بفعل عاملين اثنين ، اولهما : عامل خارجي يتمثل في الصراعات الناشبة بين شعوب دول او امم العالم للتباين الكبير في مصالحهم الحيوية لدرجة ان حل مثل هذا الاختلاف يستلزم الحرب او استخدام القوة • وثانيهما : عامل داخلي يتمثل في ان القتل المتحقق من خلال الحرب يشبع ميلا غريزيا في الانسان او رغبة كامنة لديه ، اذ ان في نفس اي انسان نوعين من الغرائز : غرائز تسعى الى الحفظ والتوحيد ، وغرائز تتجه الى التدمير والقتل • على هذا الاساس فان اية تسوية للاختلاف الكائن في مصالح شعوب دول او امم العالم لا يمكنها انهاء حالة استمرار الحرب ، وبالتالي فان « فرويد » يسخر من جميع الذين يعتقدون ان نشوب الحرب كظاهرة يعاني منها المجتمع العالمي انما تحصل فقط بفعل التناقض في المصالح بين الدول والامم المختلفة ، سواءا كانت هذه المصالح اقتصادية او سياسية او ثقافية ••• وبذلك فانه يرثي لهم ظنهم بان حسم هذا التناقض او علاجه من شأنه ان ينهي استمرار حاله الحرب او حالة التلويح بالقوة • وهو يستغرب ان يكون تحقيق امر كهذا كفيل وحده بضمان انعدام الحرب ويعبر عن استهجانه لذلك في قوله التالي : « لا فائدة من محاولة التخلص من ميول الناس العدوانية • يقال لنا ان هناك ــ في مناطق سعيدة معينة من الارض ، حيث تقدم

الطبيعة بوفرة كل ما يتطلبه الانسان ـ اجناس تمضي حياتها في هدوء ولا تعرف اندفاعـا ولا عدوانيـة • ولا اكاد اصدق هذا ديسرني ان اسمع المزيد عن هذه الكائنات المحظوظة » • اما اذا حسم اية اختلافات حاصلة في مصالح دول او امم العالم من خلال اجراءات حضارية سلمية متمدنة وقضي على حالة الحرب فانمـا يكون ذلك على حساب الحالة السوية للطبيعة البشـرية ، حيث يظهر ذلك جليا « في تشوهات الشخصية ، وفي الاستعداد الدائم للغرائز المكبوتة للانطلاق الى الاشباع في اية فرصة مناسبة » ، وهذا الامر يؤدي ب « فرويد » الى تمجيد الحرب لانـه يرى في نشوبها تبريرا بايولوجيا لا مناص منه ، ومن ثم فانه يذكرنا بالمثل القديم « اذا رغبت في السلام فاسـتعد للحرب » الذى « حان الوقت لان نعيد صياغته هكذا : اذا اردت احتمال الحياة ، فلتكن مستعدا للموت » •

● ذكرنا فيما سبق ، ان نتائج الابحاث والدراسات التى قام بها علماء امثال : ساكون وكيوولينج ورايخ ••• دلت بشـكل قاطع ولا يقبل ادنى جدل على عقم وضحالة النظريات التى ترى ان العنف البشري تظهره غرائز موروثة عند الانسـان او هناك مراكز معينة في الدماغ مسؤولة عن حدوثـه • الحق ان تفسير الانماط المختلفة من السلوك البشري بنظرية الغرائز هو تفسير يستند الى تكوينات فرضية غيبية ليس لها وجود تؤدي الى الكف عن مواصلة البحث العلمي باتجاه ايجاد مسببات للظاهرة السلوكية

قابلة للتحقيق من خلال الطريقة العلمية بالاضافة الى كون هذا التفسير لا يقدم سوى تسمية اخرى للظاهرة السلوكية المعنيين بتفسيرها ، فمثلا فلان من الناس عدواني اكثر من غيره لكون غريزة (العدوان) لديه اكبر شدة او اعلى درجة مما عند الناس الاخرين . ولعل الباحث الذى يؤمن بنظرية الغرائز لا يلاقي ادنى صعوبة او اي حرج حينما يتصدى لتفسير الظاهرة السلوكية كذلك فانه « في مأمن من الوقوع في اي تناقض ما دام هذا التكوين الفرضي غير قابل للتحقيق وما دامت ملاحظته بشكل مباشر او وضعه تحت الحواس امر مستحيل » . ان الانسان كظاهرة هو حصيلة التطورين البايولوجي والاجتماعي اللذان طرأ عليه جنبا الى جنب لازمان طويلة ، وهو وان كان سليل ـ في اصله ـ المملكة الحيوانية الا انه بفعل هذا التطور يختلف اختلافا حاسما عن الحيوان ، لدرجة يصعب تصور الاصل الحيواني للانسان ، حيث ان بلوغ الانسان مرتبة الانسانية وانسلاخه من الخاصية الحيوانية انما تم عبر ضمور واضمحلال ما يشتر كان به من غرائز فطرية بدائية وهو كلما ارتفع في سلم الانسانية كلما ادى ذلك الى ابتعاده بنفس القدر من هذه الميول التى يشاركه فيها الحيوان لدرجة الانعدام ، حتى يتم الوصول الى مرحلة لا يمكننا فيها ان نلمس شبه مقارنة بينهما ، وبالتالي يصبح ما لدى الحيوان ليس من الصواب ان تتصور وجوده عند الانسان . ولعل اغفال هذه الناحية الهامة بجعل الانسان والحيوان سواء بسواء ، ادى

الى فشل كثير من الجهود العلمية المضنية لكبار الباحثين كنتيجة لتطبيقهم نتائج التجارب التى اجريت على الحيوانات المختلفة في دراسة سلوك الانسان ، متجاهلين التطورين الهائلين البايولوجي المتمثل على وجه الخصوص بتعقد امكانياته الدماغية والاجتماعي المتمثل بضخامة حضارته الراهنة . هذان التطوران اللذان فصلا بصورة حاسمة بين الانسان والحيوان ، وهو امر يجعل معالجة السلوك البشري هي غير معالجة السلوك الحيواني ، اذ ان معالجة السلوك الانساني تستلزم معالجة تلك العوامل البايولوجية والاجتماعية وتفاعلهما المشترك لكونها المسؤولة والمساهمة في تكوين الانسان وهي العوامل التى لم يفز بها الحيوان ، حيث في ضوء ذلك ينبغي مناقشة الحرب باعتبارها (حرب انسان) وليس (عنف حيوان) لا يملك سوى ميول فطرية بدائية تشكل البواعث المحركة لانماط سلوكه . ولعل ابسط رد طريف يمكن تقديمه على ادعاء « فرويد » من ان الحرب تشبع ميلا غريزيا لدى الانسان هو ان حسم التناقض بين مصالح دول وامم العالم المختلفة وتفادي الوقوع في اية حروب يمكن ان تنشب بينها من شأنه ان يجنب افراد شعوبها المخاطر الجسدية والنفسية التى تنتج بفعل اندلاعها وليس العكس ، حيث ان مختلف الحروب التى شهدها العالم في الامكنة و الازمنة المختلفة لا تدع مجالا للشك في ذلك . الحق ان « فرويد » يتكلم عن الحرب ـ كما يبدو ـ بوصفها حرب الغاب حينما كانت تجري بين انواع الحيوانات المتوحشة بسبب كسرة من العظام لسد رمق الجوع او

بسبب ظل تحت الاشـجار للاحتماء به من اهـب الشمس او من زمهرير الشتاء ، ولا يتحدث عن الحرب بوصفها (حرب انسان) وكونها غير مجردة عن محتواها الانساني او مضمونها الاجتماعي الذي لا يكون هذا المحتوى او المضمون سوى (الحق او الباطل) حيث به وحده وعلى اساسـه ينبغي ان تصنف الحرب ك (حرب عادلة او حرب غير عادلة) كما ينبغي على اساسـه ايضا ان يبرر وجودها او عدم وجودها .

ثالثـا :

العامل النفسي ودوره في الحرب

من الممكن تقسيم مجموعة العناصر التي تساهم في الحرب ، أيـة حرب ، الى قسمين رئيسيين ، أولهما : العناصر المادية التي تشمل الأعداد البشرية والامكانيات الاقتصادية وكثافة التسلح وطبيعة لارض وغيرها ... وثانيهما : العوامل النفسية التى تخص القيادة والمقاتلين وباقي افراد شعب الدولة المحاربة . وما نقصده بالعوامل النفسية هنا ، هو مدى الوعي المستوعب للحرب كظاهرة لها اساليبها واهدافها الخاصة بها ، ومدى التفكير المبدع المخطط لها من قبل القيادة اولا ثم من قبل المقاتلين ثانيا .. حيث كلمـا ازداد هذا المدى كلما ازداد احتمال الفوز في الحرب . ان الحروب المختلفة التى شهدها العالم في شتى البقاع لا تقدم اثباتا لاهمية العوامل النفسية في احراز النصر فحسب بل وتدلل على افضليتها بالمقـارنة الـى العوامـل المـادية ، وتعـود اهميـة العـامل النفسي ـ والقيادة هنا هي المقصودة اساسا ـ في كونه المنظم لكافة المستلزمات الحربية المتوفرة من عناصر مادية وعناصر نفسية متمثلة بالمقاتلين وجماهير الشعب واستخدامها استخداما علميا صحيحا في ضوء المعرفة بأمكانيات العدو المادية والنفسية ايضا ، حيث ان مثل هذا الاستخدام اذا لم يؤدي الى نيل النصر عاجلا او اجـلا فانه يبعد حتما شبح اية هزيمة يمكن التعرض لهـا من قبل العدو

لاسباب معينة يظهر فيها تفوقه . ان امكانيـة الوعي بخصوص ظاهرة الحرب اصبحت اليوم كبيرة جدا بسبب من هذه الحروب الكثيرة والمتنوعة التى شهدها عالمنا في الماضي والتى يشهدها في الحاضر سواء منها الحروب القصيرة الامد او الطويلة المعلنة منها او غير المعلنة .. وبالتالي فان تحقيق هذه الامكانية من خـلال استيعاب الحرب كظاهرة اجتماعية تملك شروطها المسببة ونتائجها المعينة يمكن ان يؤدي الـى تحقيق امكانيـة الوعي بخصوص (السلم) كظاهرة اجتماعية اخرى مغايرة لها تملك شروطها المسببة ونتائجها المعينة ايضا ، وبذلك يمكن الاطلال على السلم من خلال الحرب بعد توفر المقدرة علـى التحكم بها والتنبؤ لهـا ومن ثم تلافيها ، وهـذا يقتضي استيعابها بعمق كظـاهرة اجتماعية ذات عناصر ثابتة مسببة واساليب خاصة توصل الى الاهداف الموضوعة من اجلها . ومما تنبغي الاشارة اليه هنا ، هو ان العامـل النفسي المتمثل في الوعـي الكبير للحرب وفي التفكير المبـدع السـليم لا يشمل تلك الاساليب الخادعة المزيفة التى تدعي مالا تملك مما يدخل (خطـأ) ضمن نطاق ما يعرف : (الحرب النفسـية) بغية تحقيق نصر حقيقي منشود ، اذ ان الادلة العلمية التى تثبت عدم جدوى مثل هذه الاسـاليب وعقمهـا عديدة جدا ، وبالامكان استنتاجها من مختلف الحروب التى شـهدها عالمنا في الماضي او الحاضر . ونسـتطيع هنا ان نقدم ــ في ضوء نزاهـة الباحـث العلمية ــ مثالا واضحا لقربـه الينا في الزمان والمكـان الآنيين

بخصوص الحرب العراقية الايرانية الحاليـة ، فلقد ادعت القيادة الايرانية في مطلع هذه الحرب انها قادرة على احتلال ــ العاصمة العراقية بغداد ــ وانها ستزمع بتنفيذ هذه المهمة في غضون الايام القليلة التالية ، فلتستعد جماهير بغداد لهذا الاحتلال • فهل حقق مثل هذا الاسلوب التضليلي من بين اساليب كثيرة اخرى مماثلة غايته ؟ لا بل هل استطاعت تلك الاساليب الوهمية في تجنب هزيمة القيادة التى استخدمتها ؟ وهناك امثلة كثيرة في حروب واحداث شهدها العالم توضح ان مثل هذه الاساليب بالاضافة الى كونها عقيمة ولا جدوى من ورائها فانها تلحق افدح الخسائر بالجانب الذى يستخدمها بشكل ومحتوى غير علمي او سليم • على اننـا لا نغمط ، بأي حال من الاحوال ، اثر الاساليب التى تدخل ضمن نطاق (الحرب النفسية) فيما اذا استعملت بشكل ومحتوى علمي اي بشكل عقلاني ومقبول وغير بعيد جدا عن الامكانيات المتوفرة في البلد المحارب •

لقد لعبت العوامل النفسـية التى تخص القيادة والمقاتلين وجماهير الدولة المحاربة ادوارا باهرة النجاح فاقت الى حد بعيد تلك العوامل الماديـة الصماء في مختلف الحروب التى شـهدها العالم لاسباب يمكن اجمالها فيما يلي :

١ ــ ان القيادة تستطيع ــ ومن خلال المعرفة الواسعة بالحرب كظاهرة تملك متغيراتهـا الاجتماعية (الاقتصادية والسياسـية والثقافية ••) ونتائجها ومن ثم التحكم فيها ، كذلك من خلال

التفكير المبدع بما يخصها متمثلا هذا التفكير باستخدام كافة العناصر المادية من اعداد بشرية وامكانيات اقتصادية وكميات الاسلحة ... وباستخدام العناصر النفسية التى تخص المقاتلين وافراد الشعب استخداما علميا مدروسا في ضوء المعرفة بامكانيات العدو من العناصر المادية والعناصر النفسية ، بحيث ان اي نقص حاصل في عنصر ما من بين جميع العناصر التى تتطلبها الحرب يمكن التعويض عنه بغيره من العناصر المتوفرة وزجه في المعركة بشكل ومحتوى سليم لكي يظهر التفوق في ناحية ما كتعويض عن النقص او الثغرة الحاصلة في ناحية اخرى ، فمثلا يمكن الرد على الطيران المتفوق للعدو بالتحصين المكثف للمقاومات الارضية والتوزيع الجيد للقوات المقاتلة وبث روح التجلد والاحتمال في نفوس الجماهير التى تتعرض للقصف والتمويه المخطط السليم وغير ذلك ... ـ نقول تستطيع من خلال جميع ذلك ان تلحق افدح الخسائر بالطرف المقابل باعداده وعدته . او انها تستطيع فيما اذا كانت ـ جميع العوامل معاكسة لها ـ ان تبعد شبح الهزيمة لمقاتليها في ادنى حدود الاحتمال .

٢ ـ ان المقاتل الواحد يستطيع ـ من خلال المعرفة التامة القضية التي يقاتل من اجلها ومن ثم الايمان بعدالتها الذي يؤدي به هذا الايمان الى امتلاك او كسب الارادة الصلبة والشجاعة الكافية ... ـ ان يقاوم اعداد كثيرة مسلحة من قوات العدو مسلوبوا الارادة فيما اذا كان يعوزهم الايمان بعدالة الحرب التي

انخرطوا فيها • وعلى اساس من امكانية قيام مثل هذا الاحتمال لوحده يمكن التسليم بالاهمية الفائقة لارادة المقاتل مقارنة بالسلاح الذى يحمله من ناحية نوعه وكميته ، وبذلك يمكن ان يكون التسلح النفسي للمقاتل متمثلا بوعيه وارادته الصلبة وشجاعته القوية•• يفوق بكثير جدا تسلحه الالي متمثلا بالبندقية او المدفع او الدبابة •• وهو يفوقه لكون ان التسلح النفسي طريق يضمن تحقيق هدف التسلح الالي •• لقد اشاد في اهمية هذا الجانب الاهم في الحرب معظم كبار الفكر والعمل الحربي منذ اقدم الازمان التى شهد فيها عالمنا مختلف الحروب ، حيث رجح في الافضلية على التسلح الالي للمقاتلين • يكتب القائد الصيني (صن تزو) في القرن الخامس قبل الميلاد : « ان تقاتل وان تنتصر في كل المعارك •• فذلك ليس قمة النصر • ولكن قمة النصر في ان تحطم ارادة العدو ، بحيث تنتصر دون ان تقاتل ••» • كما ان هناك نظريات عديدة ترجح اهمية وافضلية هذا الجانب منها « نظرية اردان دوبيك التى تقول ان العامل الحاسم في الحرب ليس عمل الصدام اي قوة السلاح وانما ارادة القتال لدى المتحاربين • وهنالك نظرية يتبناها ليدل هارت وقد نقلها عن نابليون وفوش تقول ان الهزيمة تتقرر في عقول القيادة المقابلة ومعنوياتها وليس بعدد القتلى في المعركة ••• » •

٣ ـ ان جماهير الدولة المحاربة تستطيع ـ من خلال القيادة الحكيمة المشار اليها انفا ـ ان تقدم مبادراتها الخلاقة في الحرب

وان تساهم بدور نشط وفعال في احراز النصر ــ وقد لا نكون مبالغين ــ اذا قلنا انه لا يقل عن الدور الذى يقوم به مقاتليها في جبهات القتال اذا ما علمنــا اولا انها الرافــد الذى لا ينضب في تزويد هذه الجبهات بمقاتلين شجعان لديهم الارادة الكاملــة في تحقيق النصر واذا ما علمنا ثانيا انها صاحبــة الانتاج الوفير في شتى مجالاته وكل قطاع فيها من موقعه الخاص •

وبديهي ان هذا يستلزم ابصــار الجماهير بكافة الجوانب التى اســتدعت الحرب للمعرفة الشــاملة بالقضية اولا ومن ثم الايمان بعدالة اهدافها ثانيا ، وبذلك فان العناصر الانسانية كما يقول الاستاذ منير شفيق في كتابه (علم الحرب) : « تتحول الى قوة مادية عدديا وعسكريا اذا ما عبئت سياسيا ونظمت ، بصورة صحيحة ، وهي بالتالي تعوض عن التفوق التكنيكي لدى العدو ، وتصبح مع القيادة العبقرية ، والتطبيق الصحيح لقواعد فن الحرب وعدالة القضية ، والتنظيــم الطليعي الثوري ، وتنظيــم الجماهير واطلاق مبادراتهــا ، تصبح قوة لا تقهر حتى مــع تفوق تكنيكي وعلمي ضخم لدى العدو •• » • على اننا في الحديث عن اهميــة وافضلية العوامل النفسية مقارنة بالعوامل المادية لا يعني بأية حال من الاحوال التقليل من اهمية العوامل الماديــة ، ولعــل الدليل الطريف على اهميتها انها لوفرت لطرف ما بجانب توفر العوامــل النفسية لما قامت حرب ضده لا بل لما تجرأ طرف اخر على اعلان حربه معه ، وانما الذى رغبنا في قولــه هو ان الوعي الســليم

والتفكير الخلاق متمثلا بالقيادة اولا وبالمقاتلين ثانيا وباقي افراد الشعب وبالمواصفات التى ذكرناهـا قادرة على الرغم من القلة في العدد والعدة من احراز انتصارات واسعة في الحرب العادلة التى تشنها على اي طرف اخر يفوقه عـددا وعدة وان مثل هذا الامر لا يظهر لنا من خلال سياق حديث نظري بحت وانما يتضح بجلاء كبير من مجمل الحروب التى شهدها عالمنا سواء في الماضي او في الحاضر .

رابعـا :

أساليب التماسك النفسي في الحرب

من الواضح ان الحرب التى تشنها الدولة او الامة ـ لاسباب ما ـ تعتبر حرب شاملة ، بمعنى انها لا تخص المحاربين في جبهات القتال وحدهم وانما تتعدى ذلك الى باقي افراد شعب تلك الدولة او الامة المحاربة وفي كافة نشاطاتها المختلفة سواء منها المهنية (الزراعية والصناعية والتجارية ٠٠) او الاجتماعية (السياسية والتربوية والثقافية ٠٠) وبذلك فان النجاح في الحرب يستلزم بالاضافة الى اعداد فئات المحاربين اعدادا سليما من ناحيتي الاعداد المادي والنفسي الذى يعتبر من الجوانب الرئيسية في نجاح اية حرب يشمل كافة فئات المقاتلين والمدنيين على حد سواء ، وبالتالي فان اي حديث بصدده انما هو حديث يخص هاتين الفئتين معا . فلقد اظهرت « احصائيات الحرب العالمية الاخيرة زيادة كبيرة فيالخسائر المدنية عنها في عدد الوفيات بين العسكريين (١٨ مليون مدنيا مقابل سبعة ملايين مقاتلا في ميدان العمليات الاوربي وحده) ، مما يدل على امتداد بعض الواجبات التى كانت قاصرة على المقاتلين وحدهم الى الامة المحاربة بأكملها . وهكذا اذا وزعنا بالتساوي تعبئة الارواح والارادات والتضحيات عند وقوع الازمة كان الجندي ـ بمعنى الكلمة ـ ليس الا مظهرا خاصا وبارزا لمشكلة عامة ، هي الحفاظ على الروح المعنوية على المستوى القومي ، وبذلك لا تختلف المشكلات التى تواجه علم النفس الاجتماعي والتى يضمها وضع المقاتل الا في درجة حدتها ـ لا في طبيعتها ـ عن المشكلات

الخاصة بعامل المصنع او موظف في ادارة من الادارات .. » .

ولما كنا قد اوضحنا سابقا ، طبيعة العامل النفسي واهمية مساهمته في الحرب ، فاننا سنكتفي هنا بتوضيح اساليب او عوامل التماسك النفسي للفرد وللجماعة طيلة فترة الحرب وكيفية تحقيق حالة الصمود ما دامت تلعب دورا بارزا في نجاح الحرب . وبديهي ان نجد هناك على اساس من التصور العلمي وفي ضوء الوقائع المختلفة الحاصلة في العالم عدة طرق مناسبة ومهمة تفضي الى حالة الصمود النفسي المتين المتوخي للفرد وللجماعة ، يمكن اجمال ابرزها على الوجه التالي :

١ ـ دمج الفرد في الجماعة ودمج الجماعة في الفرد ما دام ان كلا من الفرد والجماعة في علاقة متبادلة التأثر والتأثير وهذا يقتضي السماح الكامل للفرد في تحقيق امانيه الخاصة المشروعة وخلق الامل والثقة في نفسه على ضمان تحقيقها على الرغم من العقبات القائمة فيما اذا اشترك كفرد سوي في تحقيق اهداف الجماعة التى يكون هو جزء لا يتجزأ منها ، تلك الاهداف التى يفترض بها ان تتحد أو تمتزج مع اماني ورغبات افرادها وتعمل على تصعيدها باتجاه تحقيقها ، وبالطبع فان هذا يستدعي تطبيق الجماعة لنظم اجتماعية قويمة الاسس من اقتصادية وتربوية وسياسية وغيرها .. تراعي فيها الانسان ككائن بايولوجي تسعف بقائه حاجات ضرورية لا بد من اشباعها وككائن اجتماعي له تطلع حضاري يزداد تطورا واتساعا على مر السنين . ان الحفاظ على العلاقة السليمة بين

الفرد والجماعة من خلال تفهم الجماعـة العميق للفرد اولا ، ومن خلال التفاعل الايجابي للفرد مع الجماعة ثانيا ، وصيانة استمرار هذه العلاقة في فترة الحرب .. يضمن بشكل لا شائبة فيه صمود نفسي عنيد لكليهما معا ، لا بد ان يساهم هذا الصمود مساهمة اكيدة في نجاح الحرب التى تشنها الدولة او الامـة التى ينتمون اليها ، وعلى ضوء ذلك نجد ان التماسك النفسي الحاصل للفرد بأية درجة سيؤدي الى تعميق تماسك الجماعة بنفس تلك الدرجة التى يكون هذا الفرد كجزء منها . ووفقا لذلك فان اي صمود نفسي يتصف به الفرد انما يعتبر رصيدا للجماعة يعزز من صمودها في حالة اتساعه ويضعفه عند قلته ، كما ان اي تماسك تمتاز بـه الجماعة انما هو تماسك سيؤثر حتما بشكل او باخر على تماسك الفرد الذى يكون جزء منها سـواء من الناحية الايجابية او من الناحية السلبية ، وما هذا الا كون الجماعة والفرد في وحدة واحدة مترابطة لا ينفصم عراهـا ، يحيان في علاقـة من التأثر والتأثير المتبادلين سـواء كانت هذه الجماعة (سياسـية او تربوية او ثقافية ..) او كانت مهنية (زراعية أو صناعية او تجارية ..) .

٢ ـ تعريف كافة فئـات المحاربين والمدنيين بالقضية التى تشن الحرب من اجلها وبعدالة اهدافها ، ممـا ينجم عن هذا التعريف التخفيف او الازالة النهائية للشعور بالذنب لدى المحارب وهـو يعمد الى القتل او يضطر عليه ، كذلك يعفي باقي افراد شـعب الدولة او الامة المحاربة عن تأنيب الضمير الذى يمكن ان يتعرضوا

اليه ، وبذلك فان عدم قيام مثل هذا الشعور سوف يجنب الفرد والجماعة معا اي تصدع بدرجة ما في تماسكهم النفسي ، فلقد ثبت من خلال مختلف الحروب التى شهدها العالم في الماضي او الحاضر ، ان التماسك النفسي يتوقف اساسا على المام جميع الفئات العسكرية والمدنية بطبيعة الحرب وعلى وجه الخصوص بعدالة اهدافها ، وهذا يستلزم اعلام صادق وجريء يستند الى الافضاء بالحقيقة وحدها ، فبجانب النجاح في الحرب او في بعض جوانبها ينبغي التنويه عن عوامل الاخفاق الحاصلة في الجوانب الاخرى والاعتراف الصريح بالفشل فيها ، حيث يمكن جعل هذا الفشل مؤقتا او غير نهائيا ، بعد ان يتم تجاوز تلك العوامل التى ادت اليه ، مما يترك بلا ريب اثره الكبير في تمتين التماسك النفسي للفرد وللجماعة معا .

٣ ــ ان النصر العسكري الذى يكتسبه طرف محارب من شأنه ان يؤدي الى تماسك نفسي قوي لجميع فئات المقاتلين والمدنيين، حيث ان مثل هذا النصر يستلزم قيادة فذة تتولى امر الحرب ، لها المام تام بالحرب ومن ثم تفكير مبدع بما يخصها كظاهرة لها متغيراتها الاجتماعية (السياسية والاقتصادية والثقافية ..) ومستلزماتها التى تضمن تحقيق النصر فيها والتنبؤ الدقيق بالنتائج التى تتضمن مثل هذا النصر وبالتالي التحكم بها .

وعليه فان توفر القيادة المقتدرة يعتبر ــ برأينا ــ العامل الرئيسي والاهم في خلق وزيادة الصمود النفسي القوي لجميع

فئات المحاربين والمدنيين وكذلك في صيانة ديمومته بفعل النصر الذى تحرزه القيادة بمعيتهم ، وبديهي ان تقف وراء قيادة ناجحة كهذه صفات تتعلق على وجه الخصوص بالجوانب المعرفية (الادراكية والتفكيرية) ابرزها القدرة على التكيف في الاسلحة والاعداد المحاربة ضمن اية ظروف جديدة طارئة وتقدير الاحتمالات التى يمكن ان تنجم عنها واستغلال الفرص الملائمة لتنفيذ العمليات الحربية بالاضافة الى تنظيم مختلف الفعاليات القتالية الاخرى والخدمات التى تساهم في نجاحها كتنظيم خطط التموين والامداد والنقل ... هذا بجانب صفات ثانوية اخرى يمكن اعتبارها صفات رئيسية للقيادات الاصغر كالاخلاص للهدف والاتزان الانفعالي والموضوعية التامة والاعتراف بالخطأ والثقة العالية بالنفس وغير ذلك ...

٤ ـ ما دام النصر العسكري الذى تحرزه القيادة بمعية المقاتلين سيؤدي بالنتيجة الى تعزيز التماسك النفسي المتين لفئات المحاربين والمدنيين ، فان مثل هذا النصر يتطلب اهتمام واسع وتفهم عميق لمختلف احوال المقاتلين واحياء معنوياتهم ليتسنى لهم الاستمرار في الحرب بنجاح مؤزر ، ويمكن ان يتم مثل ذلك الاهتمام الخاص من خلال طرق عديدة بعضها عامة والبعض الاخر منها خاصة ، مثل : التبصير بعدالة اهداف الحرب التى يشارك فيها والقيمة الناتجة من مشاركته الشخصية فيها والتخفيف ـ قدر الامكان ـ من التعليمات الصارمة للحياة العسكرية ومنح

المكافآت بشكل ترقيات او اوسمة .. ومحاولة وضع المحارب في المكان المناسب وغير ذلك ...

لقد ساهم التماسك النفسي لفئات المحاربين والمدنيين على حد سواء مساهمة كبيرة وفعالة في نجاح اية حرب خاضتها شعوب دول او امم العالم المختلفة سواء في الماضي او في الحاضر، ولعل الدليل القريب الينا الذى يمكن لمسه على اهمية دور التماسك في نجاح اية حرب ومن ثم تعزيز هذا النجاح باستمراره، نجده في الحرب العراقية الايرانية المندلعة الان ، فلقد لعب التماسك النفسي دورا كبيرا وبارزا في النصر الذى احرزه العراق ، اذ بماذا يمكن تفسير تقهقر دولة كبيرة امام دولة صغيرة تقل عنها في مستلزمات الحرب المادية كالاعداد البشرية والتسلح الآلي الحديث ... او بعبارة اخرى الى اي شيء نعزي انتصار دولة صغيرة في حربها مع دولة كبيرة تفوقها عدة واعداد وتجبرها على الحرب بضراوة في عمق اراضيها ؟ اما يكون ذلك بفعل التماسك النفسي المتين الذى يفوق في جبروته تلك الكميات الهائلة من مستلزمات الحرب المادية .

خامسا :

الحرب النفسية

يمكن تصنيف الحرب استنادا الى الاهداف المتوخاة منها الى صنفين رئيسيين هما : الحرب الجسدية،والحرب النفسية. وكما هو معروف فان الحرب الجسدية تستهدف قتل الانسان جسديا بوسائل مادية هي الاسلحة بمختلف انواعهـا كالبندقية والمدفع والدبابـة .. في حين ان الحرب النفسية تسعى الى الاستحواذ على مشاعر ومدارك الانسان (وعيه وفكره) وتوجيهها الوجهة المنشودة او المطلوبة من قبل الطرف المقابل الذى يشنها ومن خلال وسائل غير مادية متمثلة بالدعاية والاعلام بمختلف انواعها . وكما ان نجاح الحرب الجسدية يستلزم استخدام وسـائلها الماديـة علميا وسليما ، كذلك فان نجاح الحرب النفسية يقتضي أيضـا استعمال وسائلها المعنوية استعمالا مقبولا وصحيحا . ومن أهم ما تتميز به الحرب النفسـية عن الحرب الجسـدية هو في كون الحرب النفسية تستخدم في كلتا حالتي الحرب والسلم ، وبذلك فهي سلاح فعال وأكثر خطورة وأهمية من الحرب الجسدية ، فيما اذا خطط لها بشكل علمي وسليم ، كذلك فان الحرب النفسية تعتبر أشد خطورة لكونها تحاول تثبيت صورة عن قضية معينة لدى الانسان (وعى) ومن ثم تستنفزه في التفكير بشأنها ، حيث من المحتمل جدا فيما اذا اختمر مثل هذا التفكير الذى هو (سلوك لفظي) يتجسد بهيئة فعل أو يتحول الى (سلوك تطبيقي) باتجاه

خدمة تلك القضية ، وبذلك تكون الحرب النفسية قد حققت هدفها • كما تعتبر الحرب النفسية اكبر أهمية من الحرب الجسدية لكونها الوسيلة التي يمكن بها من جعل الاعداء والمحايدين اصدقاء ومؤيدين بالقول والعمل باتجاه القضية المعينة التى تستهدفها تلك الحرب سواء في أيام الحرب أو في أيام السلم • على ان مما تجدر الاشارة لذكره هنا ، هو ان مثل هذه الحرب النفسية الناجحة الاهداف لا تجري بشكل عشوائي وغير منظم ، اذ انها في هذه الحالة تعطي نتائج عكس النتائج المتوخاة التي جندت الحرب النفسية من أجل الوصول اليها ، فتكون أداة خراب ودمار على الطرف الذى يستخدمها ، وبالتالي يكون من الافضل عدم استخدام الحرب النفسية نهائيا من أن تستخدم بشكل غير علمي ومدروس • فاذا كانت الحرب النفسية تعتمد على الاعلام أساسا متمثلا بالكلمة سواء كانت مكتوبة أو مذاعة •• فينبغي أن لا تجنح هذه الكلمة بعيدا عن واقع مجمل الظروف السائدة و الامكانيات المتوفرة للجهة التى تستخدم الحرب النفسية ، بغية أن تحصل على أهم عنصر من عناصر نجاحها وهو ثقة وايمان الجماهير بمقولاتها التي لابد منها لكي تصنع تسلحها النفسي الصلب ، هذا التسلح الذى يفوق بكثير جدا ذلك التسلح المادي المتمثل بالعدة والاعداد ••

فلقد لوحظ من خلال الوقائع المختلفة ، ان الكلمة الكاذبة — التى تطلقها أية جهة ما تستخدم الحرب النفسية — هي وسيلة

فعالة في قتل ثقة الجماهير بها ، وبالتالي عدم الالتفاف الشامل والمخلص حولها ، فيما اذا اتضح زيفها أو بطلانها ، لدرجة ان هذه الجماهير سوف لا تركن فيما بعد الى وسائل اعلامها المختلفة حتى وأن ظهر صادقا . ان الجهة التى ترتدي أقنعة وهمية في حربها النفسية مبتعدة بواسطتها عن الاحوال السائدة والامكانيات المتيسرة هي الجهة التي يكون نصيبها من النجاح فيها صفرا ، لانها قد تجد نفسها هنا أمام واقع الطرف الاخر وجها لوجه ، هذا الذى تهيأ لمواجهتها على أساس ذلك الادعاء بامكانياتها ، وبذلك تقع حتما ضحية مزاعمها الكاذبة بسبب الفرق الكبير بين ما تملكه وبين ما تدعيه .

على هذا الاساس فان الكلمة الصادقة الجريئة هي الكلمة التى يكتب بواسطتها النجاح لاية حرب نفسية سواء اذا استخدمت في أيام الحرب أو في أيام السلم . لهذا السبب كان القادة الصينيون الكبار « يؤكدون ويرسخون في أذهان كوادرهم وشبابهم ان الصين لا تزال فقيرة متخلفة ، وتحتاج الى جهود ضخمة لتصبح عصرية ، غنية ، مزدهرة ، الامر الذى لعب دوره في دفع الصين الى الامام ، بينما كان باستطاعة هؤلاء القادة أن يجدوا الكثير من الوقائع التى حققوها ، مصادر للزهو و التفاخر الزائد .. » . ان الكلمة كأداة فعالة للحرب النفسية تلعب دورا كبيرا وبارزا في نجاحها لكونها ذات تأثير ايجابي أو سلبي على سلوك الانسان ، فالكلمات الدالة هي بمثابة المنبهات التى

تستثير استجابات كامنة لدى الانسان ــ انطباعات مترسخة ــ تماما كما تستثيرها منبهاتها من الاشياء الداخليــة أو الخارجيــة المختلفة التى كونتها في السابق والتى تدل الكلمات عليها ، حيث ان هذا الامر يعتبر الاساس التى تستند عليه دعوة أطباء النفس لمرضاهم في ترديد بعض الكلمات الايجابية التى تعزز ثقة المريض بنفسه . في هذا الصدد يذكر ــ عن حق ــ الكاتب سلامة موسى : « ان كلمات الدم والعرض والثأر قد عينت اسلوبا من الاغتيــال والقتل في بعض مديريات الصعيد الاعلى ، وان جرائم القتل والاغتيال هــذه يمكن أن تنقص بل تزول لو ان هــذه الكلمات كانت قد محيت من لغة السكان في قنــا وسوهاج .. » . وبذلــك فان الكلمــة اذا لم تكن أهم وأخطر من الرصاصة فانها لا تقــل في التأثير بأيــة حال من الاحوال ســواء في ايام الحرب أو في أيام السلم . على هذا الاساس نجد ان المقولة التى تنص على ان : « للقلم وللبندقية فوهة واحــدة » هي مقولة زاخرة العطــاء في علميتها وعظيمة الاهمية في دلالتها أو مغزاها ، على ان جميع ذلك ينبغي ان يكون وفقا لتخطيط علمي مدروس و سليم ، بالاضــافة الى عدالة القضية التى هي أهم عنصر من عناصر نجــاح الحرب النفسية ، تلك الحرب التى تستخدم في أيام الحرب كاستخدامها في أيام السلم .

سادسا :

ملاحظات خاصة في سايكولوجيا الحرب

ذكرنا فيما سبق ، ان الحرب كظاهره اجتماعية تبرز لحسم التناقض الحاصل في مصالح دول وأمم العالم المختلفة كنتيجة لعدم القدرة على ابقاء حالة السلم السابقة وتصعيدها ؛ وهـذا ناجم ـ برأينا ـ الى وصول التناقض في المصالح الاجتماعية (السياسية او الاقتصادية او الثقافية او الدينية ‥) الى ذروته القصوى مع اتفاق حصول احد العوامل الثلاثة التالية معه :

١ ـ عدم اتخاذ أساليب سلمية مبنية على أسس علمية سليمة .

٢ ـ عدم كفاءة الاساليب السلمية المتخذة لضعف او لقلة درجة علميتها .

٣ ـ عدم جدوى او نفع الاساليب السلمية المتخذة على الرغم من كفاءتها العلمية العالية .

وفي ضوء هذا نجد ، ان الحرب (طبيعتها ومستلزماتها واهدافها) ذات مضمون وشكل اجتماعيين ، حيث يمكن عن طريق التغيير في شروطها الاجتماعية التحكم بها ، لأنها كأية ظاهرة اجتماعية آخرى تفضي الدراسة الشاملة العميقة فيها من اكتشاف العلاقات والقوانين التي تتحكم بها . معنى هذا ان ما يسبب الحرب هي عوامل اجتماعية تقع خارج الانسان وليست عوامل بايولوجية تكمن في داخله وتشبع ميلا غريزياً ثابتاً أو رغبة كامنة لديه كما يذهب الى ذلك ـ خطأ ـ أصحاب (نظرية التحليل

النفسي) ، وبديهي فان ما أوضحناه سابقا من نفنيد لهذه النظرية يعفينا عن ذكره في هذا المجال ، فلقد دلت نتائج الابحاث والدراسات في علم النفس المعاصر ، بشكل لا يقبل أدنى شك ، عدم وجود اية طبيعة عدائية موروثة عند الانسان ؛ كما ان تصنيف محركات او دوافع السلوك البشري على أساس مجموعة الغرائز التي تسعى الى الحفظ والحياة ومجموعة الغرائز التي تتجه الى التدمير والقتل هو تصنيف خاطىء ولا يستند على أي أساس علمي بالمرة ، وبالاضافة الى اكتشاف علم النفس هذه الحقيقة الهامة في الطبيعة البشرية ، فاننا نستطيع ان نلمس او نتبين (عن طريق الاستنتاج التالي) النزعة الانسانية التي يتصف بها « علم نفس الحرب » : فمن الواضح كما بينا سابقا ، ان الحرب التي تشنها الدولة او الامة ــ لأسباب ما ــ تعتبر حرب شاملة ، بمعنى انها لا تخص المحاربين في جبهات القتال وحدهم وانما تتعدى ذلك الى باقي افراد شعب تلك الدولة او الامة المحاربة وفي كافة نشاطاتها المختلفة ، وبذلك فان النجاح في الحرب يستلزم بالاضافة الى اعداد فئات المحاربين اعداداً سليماً من ناحيتي الاعداد المادي والنفسي اعداد فئات المدنيين بمثله أيضا ، لأن التماسك او الصمود النفسي الذي يعتبر من الجوانب الرئيسية في نجاح أية حرب يشمل كافة فئات المقاتلين والمدنيين على حد سواء ؛ ولما كان مدى التماسك النفسي يرتبط أشد الارتباط بمدى عدالة أهداف الحرب ، اذ ثبت من خلال مختلف الحروب التي شهدها العالم

في الماضي او الحاضر ، ان التماسك النفسي يتوقف ـ أساسا ـ على ألمام جميع الفئات العسكرية والمدنية بطبيعة الحرب ، وعلى وجه الخصوص بعدالة أهدافها ، حيث ان تعريف كافة فئات المحاربين والمدنيين بالقضية التي تشن الحرب من أجلها وبعدالة أهدافها من شأنه التخفيف او الازالة النهائية للشعور بالذنب لدى المحارب وهو يعمد الى القتل او يضطر عليه ، كذلك يعفي باقي أفراد شعب الدولة او الامة المحاربة من تأنيب الضمير الذي يمكن ان يتعرضوا اليه ، وبذلك فان عدم قيام مثل هذا الشعور سيجنب الفرد والجماعة معاً أي تصدع بدرجة ما في تماسكهم النفسي . معنى هذا ان « علم نفس الحرب » الذي يقدم خدماته في مجال تصعيد التماسك النفسي لدى القيادة والمقاتلين والمدنيين يرتبط بالعدالة الاجتماعية التي هي بمثابة غذاء له . كما يمكن الاستنتاج أيضا ووفقا لذلك ، ان « علم نفس الحرب » لا تستفيد منه سوى الدولة او الامة التي تشن حرب عادلة مع الدولة او الامة الاخرى لكونه علم اجتماعي المحتوى اخلاقي النزعة ، ولعلنا لا نجد أمام هذا الاستنتاج ثمة درجة من الغرابة او الدهشة المتسائلة ، حينما ندرك ان الانسان كائن اجتماعي وان انسانيته تتوقف على مدى اجتماعيته ، تلك الاجتماعية التي تنطوي على الضرورة الاخلاقية بدرجات مختلفة ، كذلك فان « علم نفس الحرب » يساهم بالاضافة الى مساهمته في نجاح أية حرب عادلة تخوضها الدولة او الامة مساهمة كبيرة ومؤثرة في مدى جدوى الاساليب السلمية المتخذة

للعلمية التي يضفيها عليها ، بغية حسم التناقض القائم في المصالح بين دول العالم المختلفة ، وبذلك فان مهمة « علم نفس الحرب » تزول عند حسم مثل هذا التناقض نهائيا سواء كان بواسطة التدابير السلمية المتخذة او بفعل الحرب التي تعلن ٠ على هذا الأساس يمكننا ان نتصور ان دراسة « علم نفس الحرب » ستضحي دراسة تأريخية في الوقت الذي يتم به حسم أي تناقض حاصل في مصالح دول العالم نهائيا والى الأبد لعدم قيام أية حرب بفعل القضاء على العوامل التي تبررها ، على اننا ينبغي ان نشير الى ناحية مهمة هي ان عدم حسم التناقض في مصالح دولة ما مع دولة آخرى عن طريق الحرب حينما تعجز كافة الأساليب السلمية المتخذة على الرغم من كفاءتها العلمية العالية ويثبت عدم نفعها او جدواها في تحقيق الوفاق ، فان مثل هذا التناقض القائم سيؤدي بشكل أو بآخر او بهذه الدرجة او تلك الى تأزم نفسي مرير لدى أفراد تلك الدولة او الامة ٠٠ صاحبة المطالب العادلة ، وبذلك فان حسم هذا التناقض بحرب عادلة لابد من أن يحيي معنوياتهم ويزيد من شدة تماسكهم النفسي ، على العكس تماما مما تتركه الحرب غير العادلة لافراد الدولة او الامة ٠٠ من ضعف وتصدع كبير في صمودهم النفسي ، وبالتالي انهزام حتمي بفعل ادراكهم بعدم عدالة الحرب التي يشاركون فيها ، تلك العدالة التي هي الأصل في أي تسلح نفسي متين ٠

وفي الختام نود أن نشير ، الى ان التناقض في المصالح يمكن اعتباره في البدء كـ « مثير » يكون « الاستجابة » الخاصة به لدى الجماعة ، تلك الاستجابة التي تضمنت صنع الاسلحة وتطويرها ، وكـ « استجابة » يمكن أن تضحي بعد ذلك لتصبح « مثير » لا بد أن تكون الاستجابة الخاصة به فـ « لكل مثير استجابة خاصة به تتكون عبر مراحل معينة وثابتة » وبذلك فمن المحتمل ان تتضمن هذه الاستجابة اختلاق تناقض جديد او زيادة حدة تناقض سابق طفيف ليؤدي ذلك السلاح المتطور مهمته او ان تكون لصناعتـه مبرر ، ان هذا الاستدلال يقودنا وفقاً لمبدأ « المثير و الاستجابة » الى أن السير بأتجاه حسم التناقض القائم في مصالـح دول وأمم العالم المختلفة ينبغي أن يرافقه بالضرورة الحد من صناعة الأسلحة وخاصة الاسلحة المتطورة منها لتحقيق خطوات واسـعة بأتجـاه السـلام المنشود للمجتمع الدولي .

المراجع

١ ـ علم الحرب • منير شفيق • بيروت ـ ١٩٧٢ •

٢ ـ مجلة الفكر العربي المعاصر • العدد (١١) ـ ١٩٨١ •

٣ ـ أفكار لأزمنة الحرب والموت • سيجموند فرويد • ترجمة سمير كرم ـ ١٩٧٧ •

٤ ـ ايضاحات نقدية في الوراثة وتفسير السلوك • جاسم كريم حبيب ـ ١٩٧٩ •

٥ ـ مجلة الدوحة • عدد مايو ـ ١٩٧٦ •

٦ ـ علم النفس العسكري • بول موكور • ترجمة محمد مصطفى وحلمي عزيز •

٧ ـ الوعي والفكر في الفلسفة وعلم النفس • جاسم كريم حبيب ١٩٧٧ •

٨ ـ مجلة دراسات عربية • العدد (١٠) ـ ١٩٨١ •

٩ ـ دراسات سايكولوجية • سلامة موسى •

١٠ـ الاثارة والاستجابة عند الانسان على ضوء بحث تجريبي • جاسم كريم حبيب • ١٩٧٦ •

المحتويات

« ملاحظات في سايكولوجيا الحرب »

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١١٧٥ لسنة ١٩٨٢

٢٠٠٠ / تمـوز ١٩٨٢

مطبعة عصام ـ بغداد ١٩٨٢

● **عن آخر بحث .. يشير الدكتور نوري جعفر :**

« .. أود ان أشيد بالجهود العلمية الممتازة التي تبذلونها في معالجة قضايا فلسفية وسايكولوجية عميقة بأسلوب خال من التعقيد وبلغة سليمة وعرض شيق . و ـ رسالة في تفسير السلوك البشري ـ بالغة الاهمية بنظري وتسد فراغا علميا في المكتبة العربية ، راجيا لكم دوام التقدم في أعمالكم العلمية الرائعة .. » .

(من رسالة خاصة مؤرخة في ٧ نيسان ١٩٨٢)

● **اصدارات سابقة للباحث :**

١ ـ الاثارة والاستجابة عند الانسان على ضوء بحث تجريبي ١٩٧٦

٢ ـ الوعي والفكر في الفلسفة وعلم النفس ١٩٧٧

٣ ـ ايضاحات نقدية في الوراثة وتفسير السلوك ١٩٧٩

٤ ـ القلق من وجهة نظر خاصة ١٩٨٠

٥ ـ رسالة في تفسير السلوك البشري ١٩٨٢

٦ ـ ملاحظات في سايكولوجيا الحرب ١٩٨٢

● **اصدارات قادمة للباحث :**

١ ـ فنسنت فان جوخ : بحث تطبيقي في تفسير انماط السلوك البشري .

٢ ـ رؤيـة جديدة في الوظائف المعرفية للدماغ البشري .

٣ ـ المراة والرجل من وجهة نظر العلم .

٤ ـ في التحليل السايكولوجي للادب .

السعر : (٣٥٠) فلسا